

مؤهلات ومصادر استنباط الهدى المنهاجي من القرآن الكريم (ابن باديس أنموذجا)

Qualifications and sources of deducing methodological guidance from the Holy Qur'an (Ibn Badis as a model)

عديلة عبد القهار¹، قلايلية العربي²

¹ كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية (الجزائر)، abdelkabar.adila@gmail.com

² كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية (الجزائر)، Glailaiarbi@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/07/19 تاريخ القبول: 2022/02/17 تاريخ النشر: 2022/03/12

ملخص:

تهدف هذه المقالة إلى إبراز المؤهلات والمصادر التي يجب أن تتوفر لدى المتصدر لاستنباط الهدى المنهاجي من القرآن الكريم وذلك من خلال البحث في تراث واحد من أعلام تفسير القرآن الكريم والإصلاح الديني في الجزائر وهو الشيخ: عبد الحميد ابن باديس الجزائري (1889-1940)، لتبرز مؤهلاته ومصادره في استنباط الهدى المنهاجي من خلال تفسيره للقرآن الكريم، لعلنا نفتدي به اليوم. فالرجل كان عليما بالعربية، عليما بعلوم القرآن، مؤمنابه، يعرف وضع أمته وحالها، وما الذي تحتاج إليه، معتمدا في معالجة مشكلتها على القرآن الكريم والسنة النبوية والسيرة النبوية. كلمات مفتاحية: ابن باديس، مصادر، مؤهلات، المنهاج، الهدى، القرآن.

Abstract: This article aims to highlight the qualifications and sources that the leader must have in order to derive the methodological guidance from the Holy Qur'an through researching the heritage of stars of the interpretation of the Holy Qur'an and religious reform in Algeria, Sheikh: Abdul Hamid Ibn Badis Al-Jazaery (1889-1940), To highlight his qualifications and sources in deducing methodological guidance through his interpretation of the Holy Qur'an, so that we may emulate him today. prophetic.

The man was well-versed in Arabic, well-versed in the sciences of the Qur'an, a believer in the Qur'an, knew the status and condition of his nation, and what it needed, relying in dealing with its problem on the Holy Qur'an, the Prophet's Sunnah and the Prophet's biography.

Keywords: Ibn Badis; qualifications curriculum; guidance; the Qur'an.

1. مقدمة:

إذا كان التفسير هو محاولة فهم مراد الله عز وجل من وحيه على قدر الطاقة البشرية، وأن العلماء وضحو بأنه أشرف العلوم الشرعية قاطبة، لأنه العلم الذي يتخذ من كلام الله موضوعاً له، يكشف عن خباياه، ويستلهم منه الطريقة المثلى في أداء الخلافة في الحياة الدنيا، ويحدد معالم المنهج الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويبشر من أخذ بمعالم ذلك المنهج دور الريادة والقيادة، والشهادة على الأمم. فإن المفسر يحتاج إلى مؤهلات علمية وأخلاقية، حتى يكون أهلاً لتعاطي التفسير، ويكون استنباطه للهداية القرآنية من على الوجه الصحيح.

وخير من يمكن أن نأخذه من مفسري العصر الحديث نموذجاً لتوضيح مؤهلات استنباط الهدى المنهاجي من القرآن الكريم، "العلامة عبد الحميد ابن باديس"، الذي يعد من أبرز علماء الجزائر والذي كان لتفسيره وتبينه للهدى القرآني أثر عجيب في تغير المجتمع، وهو الذي عاش في أصعب مرحلة مرت بها الجزائر وهي: مرحلة الاستعمار الفرنسي.

هذا الهدى الذي كان الإمام رحمه الله يستخرجه من تفسيره للقرآن الكريم كانت له ميزة لم تكن لغيره، سواء من ناحية تأثر الناس به، أو من ناحية إقبالهم عليه، ومن قرأ تلك النماذج القليلة المنشورة في الشهاب باسم "محالس التذكير"، علم أن الرجل له ما يميزه عن غيره من أراء وأفكار، استنبطها من مصادر معينة أكسبته تلك المؤهلات التي حباه الله تعالى بها.

فما هي المؤهلات التي كان يمتلكها، والمصادر التي كان يعتمد عليها، ليحوز على هذا التميز والقبول؟

2. التعريف بأهم مفردات الموضوع (ابن باديس - الهدى المنهاجي)

1.2 ترجمة مختصرة للشيخ عبد الحميد ابن باديس:

ولد عبد الحميد ابن باديس بمدينة قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري آنذاك في ربيع الثاني 1308 هـ الموافق لـ 4 ديسمبر 1889م، وتلقى تعليمه أولاً بحفظ القرآن الكريم فآتمه وهو في السنة الثالثة عشرة من عمره¹، وأخذ مبادئ العربية ومبادئ الإسلام عن الشيخ حمدان الونيسي، ثم تلقى الدراسة الابتدائية بمدينة

¹ - عمار طالبي، 2014م، ج1، ص 72-73، و عبد الحميد بن باديس، 2015م، ج1، ص6.

قسنطينة والثانوية بجامع الزيتونة حيث درس من عام 1908 إلى عام 1913م، وكان من المبرزين الذين تلقى عليهم العلم في هذه الجامعة: العلامة المفكر محمد النخلي القيرواني، زعيم النهضة الفكرية بالجامع، والأستاذ الطاهر بن عاشور، باعث النهضة الإصلاحية بالجامع، والذي كان له تأثير كبير في تكوين عبد الحميد ابن باديس اللغوي، وفي الشغف بالأدب العربي والاعتزاز به، وآخرين.... (وتوفي رحمه الله تعالى سنة 1940م).

وخاض الإمام في مجالات مختلفة تعليمية وصحفية واجتماعية وسياسية محاولاً تحرير بلده من الاستعمار الفرنسي، وإحياء الإسلام في نفوس الجزائريين بعد أن حاولت فرنسا نزع العقيدة الإسلامية من النفوس وسط حملة تعريب ضارية لم تجد لها في التاريخ مثيلاً.

ونجح ابن باديس بمنهجه الإصلاحية المستمد من القرآن الكريم وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في إنقاذ بلاده وإعادة شخصيتها وكيانها فحق اعتبار ذلك بمثابة معجزة القرن العشرين.² وقد اتخذ هذا الإمام الكبير من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح دليلاً ومرشداً في منهجه وأعماله كلها، كما خلف لنا رحمه الله تجارب عظيمة في الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي والسياسي.

2.2 مفهوم الهدى المنهجي

المُهدى: "يدور معناه على الدلالة والبيان والإرشاد³، هداه يهديه: دلّه بلطف كما عبر الراغب الأصفهاني قال: "الهداية هي الدلالة بلطف"⁴.

أما "المنهاج"، فهناك ثلاثة ألفاظ تستعمل فيه: "النهج" و"المنهج" و"المنهاج"، وكلها يقصد بها الطريق⁵، ذكر ابن فارس لهذه المادة أصليين، أولهما، وهو المقصود هنا -: "النهج: الطريق، ونَهَجَ لي الأمر: أوضَحَه، وهو مستقيم المنهاج، والمنهج: الطريق أيضاً، والجمع المناهج"⁶.

² - محمود قاسم، 1968م، ص14، و ينظر: قوادري، 1436هـ، ص49.

³ - د. الشاهد البوشيخي، 1436هـ/ 2015م، ص: 13.

⁴ - راغب الأصفهاني، 1412هـ، باب: النون، ص: 538.

⁵ - ابن منظور، 1999، ج 14 ص: 300. والإمام القرطبي، 2000م، ج 01، ص: 57.

⁶ - ابن فارس، 1399هـ- 1979م، مادة: ن. هـ. ج، ص: 361.

لكن "المنهج" أغلب استعماله في الطريق الفكري، وأغلب استعمال "النهج" في الطريق مطلقاً، وأغلب استعمال "المنهاج" في الطريق العملي الذي له أصل فكري، ولكن الذي هو في البؤرة في لفظة المنهج هو الطريق الفكري، أي الكيفية النظرية التي يتم وفقها الوصول إلى حقائق معينة. وأما "المنهاج" فهو الطريقة العملية التي يسار عليها للوصول إلى مقاصد بعينها. فإذا ركبنا الأمر وقلنا "الهدى المنهاجي"، يصير الأمر تلقائياً أن المقصود به هو الطريقة المثلى في "التفكير" وفي "التعبير" وفي "التدبير"⁷.

فإذا قلنا: "الهدى"، انصرف إلى هدى الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ (البقرة: 120).

وحين نقول "الهدى المنهاجي من القرآن الكريم"، نقصد به "الطريقة المثلى في أداء الخلافة، وفي أداء العبادة، وفي أداء الشهادة"⁸.

3. مصادر الهدى المنهاجي

إن المتتبع لأثار ابن باديس يجد أن مصادر استنباطه للهدى المنهاجي تتلخص في ثلاثة مصادر كبرى:

1.3 القرآن الكريم

يصرح بذلك في تعقيبه لقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾⁹.

قائلاً: "حظنا من العمل بهذه الحكمة أن نقرأ القرآن ونتفهمه حتى تكون آياته على طرف ألسنتنا ومعانيه نصب أعيننا لنطبق آياته على أحوالنا وننزله عليها كما كانت تنزل على الأحوال والوقائع، فإذا حدث مرض قلبي أو اجتماعي طلبنا دواءه في القرآن وطبقناه عليه، وإذا عرضت شبهة أو ورد اعتراض

⁷ - د. الشاهد البوشيخي، المرجع السابق، ص: 13.

⁸ - المرجع نفسه، ص: 13.

⁹ - سورة الفرقان: الآية 32.

طلبنا فيه الرد والإبطال، وإذا نزلت نازلة طلبنا فيه حكمها، وهكذا نذهب في تطبيقه وتنزيله على الشؤون والأحوال إلى أقصى حد يمكننا¹⁰.

نلتمس في قوله هذا رحمه الله دعوى إلى فهم وتدبر القرآن، وجعله المصدر الأصلي والأساسي في استخراج الهدى الذي نعيش وفقه ونطبقه على أحوالنا، حتى نستطيع أن نصحح فهمنا وفق هدى الله عز وجل، وهكذا تصبح تصرفاتنا وسائر أحوالنا مطابقة لما ارتضاه لنا الله تعالى ليجعلنا خلفاء في الأرض على الوجه الصحيح حقا.

وهذا الإمام محمد البشير الإبراهيمي يؤكد على تركيز الإمام ابن باديس في استخراج الهدى المنهجي على القرآن الكريم قائلا: "فسلك في درس كلام الله أسلوبا سلفي* النزعة و المادة، عصري الأسلوب والمرمى، مستمدا من آيات القرآن و أسرارها أكثر ما هو مستمد من التفاسير و أسفارها"¹¹. وفي كلام البشير الإبراهيمي إشارة إلى أن المنهج المتبع عند ابن باديس مبني على استنباط الأحكام والآراء من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وسيرة الصحابة الأوائل أكثر من اللجوء إلى آراء المفسرين وأصحاب المذاهب الأخرى.

و الإنسان بدون قرآن في نظر ابن باديس ميت، حتى تحل فيه روح القرآن وبالقُرآن يتم إحياء الإنسان يقول رحمه الله "فالتالي للقرآن المتدبر لآياته يكون متفكرا في مخلوقات الله وما فيها من حكم ومن نعم، وفي معاني أسمائه وصفاته، وفي مظاهر رحمته وإحسانه وبطشه وانتقامه، وفي أسباب ثوابه وعقابه، وفي مواقع رضاه وسخطه، كما يكون التالي أيضا متبصرا في عقائده خبيرا بأدلتها ورد الشبه عنها، كما يكون مستحضرا لربه في قلبه باستحضار حقوقه ونعمه وآلائه، إن هذا كله مما تضمنته آي القرآن على أكمل بيان وأوضح برهان"¹².

¹⁰ - عمار طالي، المرجع السابق، ج 01، ص: 418.

*- يقصد بذلك منهج السلف الصالح أيام الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين.

¹¹ - البشير الإبراهيمي، 1997م، ج 01، ص: 343.

¹² - المصدر نفسه، ص: 142.

يريد ابن باديس من خلال هذا القول أن يفرق لنا بين نوعين من الإيمان، إيمان مبني على التقليد يكون صاحبه معطل الفكر، مقيد الذهن، تابع لما يمليه عليه غيره، وإيمان مبني على تبصر ويقظة، يكون صاحبه متقد الفكر حي الشعور، يستعمل كافة حواسه ومداركه العقلية في فهم القرآن الكريم والاتعاظ به. كما نجد أن الإمام يدعو طلاب العلم إلى التركيز في طلبهم للعلم على تفسير القرآن الكريم الذي يمكنهم من معالجة معضلات الحاضر والمستقبل، يقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾¹³، "فترى الطالب يفني حصة كبيرة من عمره في العلوم الآلية دون أن يكون قد طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير، كتفسير الجلالين مثلاً، بل ويصير مدرّساً متصدراً ولم يفعل ذلك، وفي جامع الزيتونة -عمره الله تعالى- إذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويع في درس تفسير فإنه -ويا للمصيبة- يقع في خصومات لفظية بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قبل، فيقضي في خصومة من الخصومات أياماً أو شهوراً، فتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ أو ما تجاوزه إلا قليلاً دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير، وإنما قضى سَنَتَهُ في المحاكات بدعوى أنها تطبيقات للقواعد على الآيات، كأن التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية، فهذا هجر آخر للقرآن، مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن"¹⁴.

أي أن تدبر القرآن وفهمه يعني السعي إلى تحقيق مقاصده الكلية، يقول الحسن البصري: "والله، ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتّى إنّ أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، وما يرى له القرآن في خلق ولا عمل"¹⁵.

فالمقصود هو تدبر المعاني وتمثلها في العمل وعيا وتبصرا.

2.3 السنة النبوية

¹³ - سورة الفرقان: الآية 30.

¹⁴ - عبد الحميد بن باديس، 2015، ج 02، ص: 45.

¹⁵ - ابن كثير، 1419هـ، ج 04، ص: 43.

هي بيان القرآن ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾¹⁶.

يقول الشيخ ابن باديس: "ميزان: عندما يختلف عليك الدعاة الذين يدعي كل منهم أنه يدعوك إلى الله تعالى، فانظر من بالقرآن إلى القرآن، ومثله ما صح من السنة لأنها تفسيره وبيانه، فاتبعه، لأنه هو المتبع للنبي صلى الله عليه وسلم في دعوته وجهاده بالقرآن..."¹⁷

كما هو واضح في قول ابن باديس فإنه يعتبر السنة النبوية هي المصدر الثاني في استخراج الهدى المنهجي من القرآن الكريم، فلا غنى للقرآن عن السنة "لأنها تفسيره وبيانه"¹⁸، ومن ثم لا بد من التفقه فيه، وفي السنة النبوية، لأنها شرحه وبيانه.

ولابد للدارس من معايشة القرآن الكريم والسنة النبوية حتى يرتقي إلى تلك المرتبة التي تؤهله للتمييز بين الأقوال والآراء وعرضها على الميزان الميزان الصحيح "القرآن والسنة" وإلا تسرب اليه الزيغ من حيث لا يدري أو من حيث تستبد به الأهواء.

والذي يطلع على تفسير ابن باديس يجد أنه اعتنى بها عناية بالغة، واستشهد بها في تفسير وتوضيح وتأكيده معاني كثير من الآيات¹⁹.

3.3 السيرة النبوية

يوضح ابن باديس رحمه الله أن البيان النبوي نوعان: قولي وفعلية، يقول عند تفسيره لقوله تعالى من سورة الذاريات: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾²⁰: "بيان نبوي قولي: قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- فيما يقال عند النوم: "لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك"، والملجأ هو المغرب الذي يهرب إليه، والمنجى هو مكان النجاة؛ فبين لنا أنه لا يكون الهرب إلا إلى الله، ولا تكون النجاة إلا بالهرب إليه،

¹⁶ - سورة النحل، الآية 44.

¹⁷ - عبد الحميد بن باديس، المصدر سابق، ج 02، ص: 73.

¹⁸ - المصدر نفسه، ج 02، ص: 73.

¹⁹ - ابن باديس، المصدر السابق، ج 02، ص: 46، ج 01، ص: 376-377 وغيرها كثير.

²⁰ - سورة الذاريات، الآية 50.

فمن هرب لغيره كان من الهالكين؛ كما بين لنا أن كل ما يجري في هذا العالم فهو بخلقه وبقدرة، فلا مهرب ولا نجاة مما خلق وقدر إلا إليه.

بيان نبوي عملي: روى أحمد، وابن جرير عن حذيفة بن اليمان: "أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كان إذا حزبه أمر صلى وفرغ للصلاة".

يعني إذا نزل به هم أو أصابه غم فرغ للصلاة، فبين لنا بالفعل أن الفرار إلى الله بالتلبس بطاعته، وصدق التوجه إليه، والدعاء والضرع والخشوع له، والاستسلام لدينه وشرعه، والإخلاص في عبادته، والاعتماد عليه، وذلك كله موجود على أكمله في الصلاة، التي هي عمود الدين ومظهر كماله²¹.

من هذا المثال نلاحظ أن ابن باديس جمع بين نوعي التفسير النبوي فقال: بيان نبوي قولي - وقال: بيان نبوي عملي - وهنا ينبغي الإشارة إلى أن علاقة السنة النبوية بتفسير القرآن الكريم ليست مقصورة على التفسير اللفظي، بل يوجد الجانب غير المباشر، عبر عنه ابن باديس بالبيان العملي، ولذلك عطف به على "البيان القولي"، مما يوضح أن منهج ابن باديس في التعامل مع التفسير لم يكن حرفياً فقط، بل هو مبني على الفهم العميق والمتكامل للسنة ودورها التشريعي والتفسيري.

فالسيرة هي "الوجه العملي للقرآن مربوط بالزمان"، أو هي "السنة المنظومة في الزمان"، فإذا كان ما في كتب الصحاح والسنن يمثل الإسلام في الوضع الأفقي، أي يستجيب للقضايا الفقهية والعقدية وغيرها، أي ما هو الإسلام؟، وما هو الإيمان؟، وما هو الإحسان؟ فذلك عرض للإسلام في الصورة التي انتهى إليها، لكن السيرة النبوية تعرض ذلك نفسه بطريقة تنمو وتتطور، منذ بدء نزول القرآن إلى اكتماله.

فكل ما قاله صلى الله عليه وسلم بين ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾²² وبين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾²³، قاله بين لحظة بعثته صلى الله عليه وسلم وبين آخر نزول للوحي.

²¹ - ابن باديس، المصدر السابق، ج 02، ص - ص: 326 - 327.

²² - سورة العلق، الآية 01.

²³ - سورة المائدة، الآية 03، عند من رأى أنها آخر ما نزل من القرآن الكريم

لكن عبر زمان وعبر ظروف بعينها تطوّر خلالها تطوُّرا، وكان يناظر إحلال القرآن الذي كان يتنزل ويجعله واقعا في الحياة، التي كانت إذّاك تتشكل بحسب الهدى المنهجي الذي يأتي به القرآن²⁴.

4. مؤهلات استنباط الهدى المنهجي

إن استنباط الهدى المنهجي أمر يسير لمن يسره الله سبحانه وتعالى عليه، فقد جاء في أثر علي أنه فيما رواه أبو جحيفة²⁵ عنه قال: (سألنا عليا، فقلنا: هل عندكم من رسول الله شيء سوى القرآن؟، فقال: لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا أن يعطي الله عز وجل، عبدا فهما في كتابه، أو ما في هذه الصحيفة، قلت: وما في الصحيفة؟ قال: فيها العقل وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر)²⁶.

لكنه من حيث الإنجاز هو أمر، يأتي بعد قراءة القرآن وتلاوته وفهمه والعمل به، وبعد ذلك يأتي استنباط الهدى منه، وللقيام بهذا الاستنباط هناك شروط، تحدد صحته وقبوله²⁷:

1.4 إتقان ما يلزم من علوم المقام والمقال:

يقول الإمام رحمه الله في مقدمة التفسير: "على عادتنا تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية وحمل التركيب على ابلغ أساليبها البينانية وربط الآية بوجوه المناسبات"²⁸.

ففهم أي نص كان قرآنا أو غير قرآن يحتاج إلى التمكن من اللغة وأساليبها.

كما يبين ذلك ابن باديس رحمه الله بقوله: "ويكون عمله في كتاب الله هو التفهم والتدبر لآياته والتفطن لتنبهاته ووجوه ودلالاته واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه على ما دلت عليه لغة العرب في منظومها ومنثورها"²⁹.

²⁴ - د. الشاهد البوشيخي، المرجع السابق، ص- ص: 16-17.

²⁵ - هو أبو جحيفة السوائي الكوفي، وهب بن عبد الله صاحب النبي، من صغار الصحابة، حدث عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن: علي والبراء، اختلفوا في موته، والأصح أنه توفي 74هـ. ينظر: الذهبي، 1405هـ- 1985م، ج 03، ص: 202.

²⁶ - أبو عبد الله البخاري، 1422هـ، باب: فكاك الأسير، ج 04، ص: 3047.

²⁷ - د. الشاهد البوشيخي، المرجع السابق، ص: 17.

²⁸ - ابن باديس، المرجع السابق، ج 1، ص: 93.

²⁹ - المصدر نفسه، ص: 474.

والكلمة المشهورة للإمام رحمه الله "الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا" تبين مدى حرصه على اللغة العربية، فهو يعتبرها إحدى مقومات الأمة الثلاثة المذكورة، وهذا ما ينعكس في جمع أعماله رحمه الله.

فالواجب علينا اليوم هو التمكين للغة العربية في مختلف المجالات، في التعليم وفي الإعلام وفي الإدارة وفي الحياة العامة، لإيجاد مستوى لغوي عربي عام يؤهل الإنسان لتلقي القرآن، ويحضره للمراحل القادمة لاستنباط الهدى من القرآن³⁰.

أما عن المقام يقول ابن باديس رحمه الله: "قد يتماثل اللفظان، ولكن يجب أن يعبر كل واحد بمعنى لائق بالمقام الذي قيل فيه، كما انه قد قال عنها: (ولها عرش عظيم) وقال عن الله عز وجل (وله عرش عظيم) فعرش عظيم بين عروش الملوك وعرش عظمته أعظم من السماوات والأرض، هكذا لابد من اعتبار المقام في فهم الكلام"³¹.

فالمكان والزمان والظرف التاريخي ضرورات لابد منها لمعرفة فحوى الكلام وأبعاده ودلالاته، فمكة تختلف عن المدينة وهما يختلفان عن بقية البقاع التي ينتشر فيها الأعراب وكذلك يختلف الخطاب القرآني الموجه إلى مشركي مكة أو إلى منافقي المدينة وهكذا، فالخطاب القرآني يراعي المقام ويوجه المقال حسبه. "ففي بعض الأحيان لا يمكن العثور على الدليل الذي يرشدنا إلى المعنى الصحيح لمصطلح لغوي داخل الجملة نفسها، بل نستمد ذلك من مجمل المحادثة"³²، فيؤدي المحيط الخارجي عن الكلام وظيفة الإيضاح للكلام نفسه.

وذلك أن: "المعنى المعجمي ليس كل شيء في إدراك معنى الكلام، فثمة عناصر غير لغوية ذات دخل كبير في تحديد المعنى، بل هي جزء أو أجزاء من معنى الكلام من ملابسات وظروف ذات صلة"³³.

³⁰ - د. الشاهد البوشيخي، المرجع السابق ص: 17.

³¹ - ابن باديس، المصدر السابق، ج 02، ص: 248.

³² - أ. نيد، 1976م، ج 01، ص: 208.

³³ - د. محمود السعرا، 1997م، ص: 288.

علق البشير الإبراهيمي على الخطاب الذي ارتجله العلامة عبد الحميد بن باديس في نادي الترقى، والذي كان موضوعه "العرب في القرآن" وحاول الإبراهيمي نقله إلى قراء الشهاب الغراء ولكنه أقر بالقصور وهو صاحب البيان الجهير و القلم الخطير، فقال معلقا: "... وهيئات لما نود من نقله للقراء بجملة و ألفاظه، فإنه خطاب عظيم في موضوع خطير لا يضطلع به غير الأستاذ في علمه بفنون القرآن وغوصه على مغازيه البعيدة و نفاذه في معانيه العالية"³⁴.

وهذا مما يؤكد تضلع الشيخ عبد الحميد بن باديس في علوم التفسير، سواء تعلق الأمر بعلوم المقام أو علوم المقال.

2.4 الإيمان بالقرآن والعمل به

يقول ابن باديس رحمه الله في معرض شرحه للآية الكريمة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾³⁵.

"فعلينا أن نلتزمها جهدنا حيثما دعونا، ونقتدي بأساليب القرآن والسنة في دعوتنا، فيما يحصل به الفهم واليقين، والفقه في الدين والرغبة في العمل والدوام وها نحن قد بلغ الحال بنا إلى ما بلغ إليه من الجهل بحقائق الدين، والحمود في فهمه، والإعراض عن العمل به، والفتور في العمل"³⁶.

فالدعوة عند ابن باديس هي الالتزام بتعاليم ديننا الحنيف وهو المنهج الذي سار عليه في حركته الإصلاحية.

قال السلمى³⁷: "قيل: إن استنباط القرآن على مقدار تقوى العبد في ظاهره وباطنه وتمام معرفته، وهذا أجل مقامات الإيمان"³⁸.

³⁴ - د عمار طالبي، المرجع السابق، ج4، ص: 50.

³⁵ - سورة النحل: الآية: 125.

³⁶ - ابن باديس، المصدر السابق، ج1، ص: 140.

³⁷ - هو محمد بن الحسين بن موسى، أبو عبد الرحمن الأزدي السلمى، كان شيخ الصوفية وعالمهم بخراسان، توفي في شعبان سنة

12هـ، ينظر: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، 1413هـ، ج 04، ص: 144.

³⁸ - أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى السلمى، 1421هـ - 2001م، ج 01، ص: 157.

فالذي يتبع هواه و لا يؤمن بالقرآن لا يمكن أن يفهم القرآن، وبالتالي لا يمكن أن يؤخذ عنه علم القرآن. والذي لا يعمل بالقرآن أيضا لا يمكن أن يؤخذ منه لا القرآن ولا علم القرآن³⁹.

كما أن الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله، كان يعتبر نفسه خادما للقرآن الكريم، فقال في حفل الاختتام كلمة رائعة افتتح بها خطابه: "أنتم ضيوف القرآن... وهذا اليوم يوم القرآن... وما أنا إلا خادم القرآن"⁴⁰.

يقول البشير الابراهيمي: أذكر أننا كنا في جماعة من الرفاق الأوفياء، تذاكرنا مرة في إقامة حفلة تكريم لرفيقنا الأستاذ بن باديس تنويهاً ببعض حقه على العلم وشكراً لأعماله الجليلة وآثاره الحميدة في التعليم بهذا الوطن، واعتراضاً بكونه واضع أسس النهضة، وإنصافاً لكونه أسبقنا إلى التعليم، وذهبنا في تقدير الفوائد التي تُجنى من هذا الاحتفال مذاهب لا غلّوّ فيها ولا إسراف، ثم فالتحنا أحنانا الأستاذ بهذه الفكرة، فكان الجواب قوله: دعوا هذا حتى تختم دروس التفسير، وبيننا يومئذ وبين الختم سنوات... كأنه يرى أن عمله في التفسير هو أجل أعماله في التعليم، كأنه رحمه الله كان معلق البال بهذا العمل و يخشى أن تقطعه قواطع الدهر⁴¹.

وصدق من قال: وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسرارهم بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم، وتوفر دواعيهم على التدبر⁴².

3.4 فقه حاجة الأمة:

ويراد بها الأمور المتنازع عليها في الوقت الحاضر⁴³.

أو: "المسألة الواقعة الجديدة التي تتطلب إجتهدا"⁴⁴.

³⁹ - ينظر: كحلول، السعدي، 2021م، ص: 304.

⁴⁰ - د عمار طالبي، المرجع السابق، ج 2، ص: 136.

⁴¹ - ينظر: البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ج 1، ص: 335.

⁴² - أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، بدون تاريخ، ج 01، 293.

⁴³ - ينظر: بالخير طهري، 2021، ص: 244.

⁴⁴ - خالد، سماعيل، 2015، 191.

كان ابن باديس رحمه الله كان له ذوقًا خاصًا في فهم القرآن كأنه حاسة زائدة خصّ بها، يرفده بعد الذكاء المشرق، والقرينة الوقادة، والبصيرة النافذة، بيان ناصع، وإطلاع واسع.

ولكن هل يكفي هذا لاستنباط الهدى المنهجي من القرآن الكريم ومعالجة أدواء الأمة به؟ في دعوة صريحة للأئمة والدعاة في أن يكونوا موضعين في تفسيرهم مطلعين على حاجات الأمة اليوم يقول ابن باديس رحمه الله: (انظر إلى هذه الحكمة في هذا التنزيل كيف تنزل على حسب الوقائع، في هذا قدوة صالحة لأئمة المجتمع وخطبائها في توجيههم بخطبهم الوقائع، وتطبيقهم خطبهم على مقتضى الحال. بلى والله، ولقد كانت الخطب النبوية والخطب السلفية كلها على هذا المنوال تشتمل مع الوعظ والتذكير على ما يقتضيه الحال، وأما هذه الخطب المحفوظة المتلوة على الأحقاب والأجيال فما هي إلا مظهر من مظاهر قصورنا وجهودنا⁴⁵.

يريد ابن باديس من العلماء والأئمة والخطباء أن لا يبقوا حبيسي تلك الخطب القديمة التي لا تعالج قضايا العصر، وإنما تقتصر على ذكر ما تتطلبه العبادات وما يتصل بمعرفة الحلال والحرام، أما القضايا الاجتماعية المتصلة بأحوال الأمة والنظر في شؤونها فقد تركت جنباً، وأصبح الخوض فيها يعرض صاحبه إلى المضيقات وما ينجر عنها من عقوبات لأنها تدعو إلى إيقاظ الأمة وهو عين المنهج الذي يريده ابن باديس.

ويقول في موضع آخر: "والعلماء القوامون على كتاب الله وسنة رسوله لا يتلقونهما بالفكر الخامد والفهم الجامد، وإنما يترقبون من سنن الله في الكون وتدبيره في الاجتماع ما يكشف لهم عن حقائقهما، ويكلون إلى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه أفهامهم، وقد أثر عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن قولهم في بعض هذه الآيات: لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد؛ يعنون أنه آتٍ، وأنّ الآتي به حوادث الزمان، ووقائع الأكوان، وكلّ عالم بعدهم فإنما يعطي صورة زمنه بعد أن يكشف بها نفسه"⁴⁶.

⁴⁵ - عمار طالي، مرجع سابق، ج 01، ص: 418.

⁴⁶ - المرجع نفسه، ج 2، ص: 117.

إذ لا بد أن يكون المستنبط "للهدى المنهاجي" مفعّها في ظروف زمانه، ففيها في حاجات الأمة اليوم، لأن عملية تنزيل النص على الواقع تتأثر عمليا بذلك.

يقول عنه محمد شاهين الذي جمع تفسيره: "وهو مفسر ممتاز، له استقلالته في الفهم والرأي، يقرأ التفاسير، ثم يجعل من عقله مصفاة لها، فلا يخرج منها إلا ما صح ونفع، ولاءم العصر، وصدق الخبر، مع حسن عرض، واستنباط واع، واستنتاج للعبارة، وحث على سنة، وإخماد لبدعة، في أسلوب عصري، وتطويل غير ممل، وإيجاز غير مخل" ⁴⁷.

فالذي يتصدى لاستنباط الهدى المنهاجي لا يكفيه أن يكون عليما بالعربية، عليما بعلوم القرآن، مؤمنا بالقرآن، و معرفة وضع الأمة وما حالها؟ وما الذي تحتاج إليه الآن.

5. خاتمة:

إن الأثر العجيب الذي كان لتفسير ابن باديس في النهوض بالجمتمع الجزائري يكمن سره في مصادر استنباطه للهدى المنهاجي والتي هي:

أ- القرآن الكريم: كما قال رحمه الله: " فإذا حدث مرض قلبي أو اجتماعي طلبنا دواءه في القرآن وطبقناه عليه".

ب - السنة النبوية : والتي هي تفسير للقرآن الكريم وبيان له.

ج- السيرة النبوية: وهي "الوجه العملي للقرآن مربوطا بالزمان"، أو هي "السنة المنظومة في الزمان".

أما بالنسبة للمؤهلات، فإنه كان مفسرا عليما باللغة القرآن، عليما بعلوم القرآن، مؤمنا بالقرآن، ففيها في حاجات الأمة اليوم.

وفي الختام أقول: أنه ينبغي على المتصدرين لاستنباط الهدى المنهاجي اليوم التركيز على القرآن الكريم لاستفادة ما ينبغي الاستفادة منه، والتركيز على الوحي جملة بما فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الفعلية والقولية، والتركيز على الذين استنبطوا من ذلك الهدى ما استنبطوا، مما ينفع الأمة اليوم، حتى لا نعالج أدواء الحاضر بالمنهج الغربي أو الشرقي، بل "بالهدى القرآني" الذي هو هدى الله عز وجل الذي يعلم ما يصلح لخلقه ويعلم السر وأخفى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ⁴⁸.

⁴⁷ - محمد بن رزق بن طهوني ، 1426هـ ، ج 1، ص 223.

⁴⁸ - سورة الملك: الآية 14.

كما يجب على المتصدر لاستنباط "الهدى المنهجي" علما بعلوم القرآن متضلعا في معرفة السنة النبوية وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته من بعده، وخبيرا بأحوال الأمة وثقافتها وعاداتها وسائر أحوالها.

5. قائمة المراجع:

- ابن باديس، عبد الحميد، (2015م)، محالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، دار الكتب الرشيد للكتاب والقرآن الكريم، الجزائر.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، (1399هـ - 1979م)، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، دون بلد النشر.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، (1426هـ)، تفسير القرآن العظيم، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن منظور، جمال الدين، (1999م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت.
- الإبراهيمي، محمد البشير، (1997م)، أثار الإمام محمد الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، دون بلد النشر.
- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، (1412هـ)، المفردات في غريب القرآن، دار القلم، بيروت.
- البخاري، أبو عبد الله، (1422هـ) صحيح البخاري، دار طوق النجاة، دون بلد النشر.
- البغوي، الحسين بن مسعود الفراء، (1425هـ)، معالم التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت.
- البوشخي، الشاهد، (1436هـ - 2015م)، نظرات في الهدى المنهجي في القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، دون دار النشر، المغرب.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، (1405هـ - 1985م)، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، دون بلد النشر.
- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين، (1413هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، دون بلد النشر.
- السعران، محود، (1997م)، علم اللغة العربية مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، القاهرة.

- السلمي، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى، (1421هـ - 2001م)، تفسير السلمي، دار الكتب العلمية، لبنان.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، (دون تاريخ)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت.
- القرطبي، شمس الدين، (2000م)، تفسير القرطبي، مؤسسة الرسالة، دون بلد النشر.
- بن طرهوني محمد بن رزق، (1426هـ)، التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية .
- طالي، عمار، (1968م)، ابن باديس حياته وآثاره، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر.
- قاسم، محمود، (1968م)، الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية (الإمام عبد الحميد بن باديس)، دار المعارف، مصر.
- وجين، نيد، (1976م)، نحو علم الترجمة، وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية.

الأطروحات:

- قوادري، جلاي بن معمر ، (1436هـ)، الاستنباط عند الشيخ عبد الحميد ابن بديس في تفسيره مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، قسم الكتاب وسنة، كلية الدعوى وأصول الدين، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.

6.المقالات:

- بالخير، طاهري، 2021، التكييف الفقهي وأثره في نوازل العصر، المجلة الجزائرية للمخطوطات، المجلد17، العدد2، الصفحات: 231،256.
- كحلول، السعدي، 2021، المنهج النبوي في معالجة الأخطاء فقه الموازنة أنودجا، المجلة الجزائرية للمخطوطات، المجلد17، العدد2، الصفحات: 283، 308.
- سماعيل، خالد، 2015، القواعد الفقهية وأثرها في معرفة حكم النازلة، المجلة الجزائرية للمخطوطات، المجلد11، العدد13، الصفحات: 185، 204.